﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾ [الأحزاب: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الفرارُ لا يُقَدِّمُ في أجلِ الإنسانِ ولا يُؤَخِّرُ

لَمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة ما قام به المنافقون من محاولات الفرار البائسة، باستِئْذانِهم للرُّجوعِ إلى بُيوتِهم؛ ناسبَ أن يذكرَ الواقع الفعليَّ الذي سيصيرُ إليه أولئك إن فرّوا من الموتِ أو القتل، وهو عدمُ انتفاعِهم به على التَّحقيق؛ لأنَّ المآل الحقيقيَّ بيدِ الله تعالى، فكانَ الجوابُ: أنَّه لا نفعَ في تَأْخيرِ آجالِكم في وقْتٍ مِنَ الأوْقاتِ؛ لأنَّ الأجَلَ إنْ كانَ قَدْ حَضَرَ، لَمْ يَتَأخَّرْ بالفِرارِ وإلّا لَمْ يُقْصِرْهُ الثَّباتُ، فَإنْ كانَ الأجَلُ قَدْ أتى؛ لَمْ يَنْقُصْكم ذَلِكَ شَيْئًا، ومُتُّمْ أعِزَّةً كِرامًا، وإلّا فُزْتُمْ بالنَّصْرِ، وحُزْتُمُ الأجْرَ، وعِشْتُمْ بأتَمِّ نِعْمَةٍ إلى تَمامِ العُمْرِ، فالثَّباتُ أبْقى لِلْمُهَجِ، وأحْفَظُ لِلْعَيْشِ البَهِجِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعَكُمُ﴾: (نفع) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلافِ الضَّرِّ، ونَفَعَهُ يَنْفَعُهُ نَفْعًا ومَنْفَعَةً[2]، ورجل نفّاعٌ؛ إذا كانَ ينفع النّاس، ولا يضرُّهم[3]، والنّافِعُ في أسماء اللّه تَعالَى: هوَ الَّذي يوَصِّلُ النَّفْعَ إلى مَن يَشاءُ مِنْ خَلْقِه، حَيْثُ هوَ خالِقُ النَّفْعِ والضَّرِّ والخيْرِ والشَّرِّ[4]، والنَّفْعُ: ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ؛ فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 311.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نفع).

ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: 3][1]، والمُرادُ بنفي النَّفعِ هَهُنا عدمُ استِطاعَتِهم الفرارَ مِنْ نزولِ آجالهم الَّتي قدَّرَها اللّٰهُ لَهُم.

2) ﴿ٱلْفِرَارُ﴾: (فرر) أُصولٌ ثلاثَةٌ: فالأوَّلُ الانكشافُ وما يُقارِبُهُ مِنَ الكَشفِ عَنِ الشَّيْءِ، والثّاني جِنْسٌ مِنَ الحَيَوانِ، والثّالِثُ دالٌّ عَلَى خِفَّةٍ وطَيْشٍ، والفِرارُ، الانْكِشافُ، يُقالُ: فَرَّ يَفِرُّ، والمَفَرُّ المَصْدَرُ، والمَفَرُّ: المَوْضِعُ يُفَرُّ إلَيْهِ، والفَرُّ: القَوْمُ الفارّونَ، يُقالُ: فَرٌّ جَمْعُ فارٍّ، كَما يُقالُ: صَحْبٌ جَمْعُ صاحِبٍ[2]، والمعنَى المِحْوَريُّ مباعدةٌ بِخِفَّةٍ معَ اسْتِرْسالٍ في تكرارٍ أو دوامٍ[3]، والفَرُّ والفِرارُ: الرَّوَغانُ والهَرَبُ، وفَرَّ يَفِرُّ فِرارًا: هَرَبَ[4]، والمرادُ بالفرارِ هَهُنا: استِئْذانُ المنافقينَ رسولَ اللّٰه للعودةِ إلى بُيوتِهم أثناءَ حصارِ الكفّار للمدينةِ.

3) ﴿تُمَتَّعُونَ﴾: (متع) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ، مِنْهُ اسْتَمْتَعْتُ بِالشَّيْءِ، والمُتْعَةُ والمَتاعُ: المَنْفَعَةُ[5]، ومَتَعَ النَّهارُ مُتوعًا: طالَ، وذلكَ قَبْلَ الزَّوالِ، ومَتَعَ الضُّحَى؛ إذا بَلَغَ غايَتَهُ، والمَتاعُ: ما يَستمتعُ به الإنسانُ في حَوائِجِه منْ أمْتِعَةِ البيتِ ونحوِه منْ كُلِّ شيءٍ[6]، والمعنَى المِحْوَريُّ امتدادُ الشَّيءِ معَ قوَّتِه وكمالِ حالِه، حيثُ يُلحظُ فيها الامتدادُ طولًا أو بقاءً مع جَوْدةٍ وكمال حالٍ، والتركيبُ مُسْتَعْمَلٌ في معنى الإبقاءِ دهرًا مع الزّادِ ومُستلزماتِ المَعيشةِ[7]، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ في القرآنِ (تمتَّعوا) في الدُّنيا، فعلى طريقِ التَّهديدِ، واسْتَمْتَعَ: طلب التَّمتُّع[8]، والمقصودُ بالتَّمَتُّع هَهُنا: الانتفاعُ بِما بَقيَ مِن أعْمارِهم إنْ كانَ بَقيَ مِنها شَيْءٌ في سابقِ علمِ اللّٰهِ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تَعالَى ذِكرُه لِنَبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ المُسْتَأْذِنينَ الفارّينَ مِنْ قِتالِ العدوِّ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (نفع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(6) الخليل، العين: (متع).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (متع).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (متع).
(9) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 311.

ومُنازَلَتِه في المَيْدانِ: لنْ يَنْفَعَكُم الهَرَبُ، ولا يَدْفَعُ عَنْكُم ما أُبْرِمَ في الأزلِ منْ موتِ أحدِكُم حَتْفَ أنْفِه، أو قَتْلِه بسَيفٍ ونَحْوِه، فإنَّ المُقَدَّرَ كائنٌ - لا محالةَ - والأجَلُ إنْ حَضَرَ؛ لمْ يَتَأخَّرْ بالفرارِ، وإنْ نَفَعَكُم الفرارُ بأنْ دَفَعَ عنْكُم الموتَ - منْ بابِ فَرْضِ المُحالِ والمُماشاةِ في ظُنونِكم القاصرةِ وعقولِكم الكاسدةِ - فَمُتِّعْتُم لمْ يَكُنْ ذلكَ التَّمتُّعُ إلّا قَليلًا؛ فإنَّ أيّامَ الحياةِ - وإنْ طالتْ - قَصيرةٌ[1].

الحَذَرُ لا يُنْجي مِنَ القَدَرِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾، فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ هذه الآية؛ وذلكَ لأنَّها جَوابٌ عَنْ قَوْلِ المنافقين: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: 13]، فجَرَتْ عَلى أُسْلوبِ التَّقاوُلِ والتَّجاوُبِ، وما بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ مِن قَوْلِه: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ [الأحزاب: 14]، إلى قَوْلِه: ﴿مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: 15] اعْتِراضٌ[2]، فالآيةُ مقطوعةٌ عمّا قبلَها قطعَ الإنشاءِ عن الخبرِ، وهذا القطعُ ليس فصْلًا بالمعنَى اللُّغوي، وإنْ كانَ فَصْلًا بالمعنَى البلاغيِّ، أي: إنَّ هناكَ علاقةً قويَّةً مُنْسَجِمَةً بينَ أنَّ الفرارَ مِنْ ساحةِ المعركةِ لا يُطيلُ العُمُرَ، ولا يَنْسَأُ في الأجَلِ، وليسَ فيهِ نفْعٌ، وبَيْنَ الكلامِ السّابقِ الَّذي يَذْكُرُ فرارَهُم ونَكْثَهُم للعهْدِ الَّذي التَزَموا فيهِ بألّا يَفِرّوا[3].

أُسلوبُ المحاورةِ يَقْتَضي فَصْلَ الجُمَلِ إظْهارًا لبلاغةِ النَّظْمِ

غرضُ التَّعْبيرِ بصيغةِ الأمْرِ:

جاء الخطابُ بصيغةِ الأمرِ ﴿قُل﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾؛ لتكليفِ النَّبيِّ ﷺ ومَن على هديه بإبلاغِ المنافقين على طَريقةِ المقاولَةِ بأمرِ اللهِ تعالى؛ إقامةً للحجَّةِ، وردعًا لخوفهم، وفيهِ كَذَلِكَ

بيانُ العقائدِ في أوقاتِ الشَّدائدِ أقْوى في الأثَرِ وأبينُ في الحجَّةِ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 143.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 290.
(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 122.

إشارةٌ إلى وجوبِ الصَّدْعِ بالجوابِ جَهارًا في وجوهِ النّاكثينَ الخائنينَ للعهدِ خاصَّةً في ساعاتِ الشِّدَّةِ والحربِ، وفي التصريحِ بالفعلِ كَذَلِكَ فَضْحٌ لأخلاقِهِم الذَّميمَةِ وصفاتِهِم الرديئَةِ على رؤوسِ الأشهادِ، ومِن هُنا فقدَ أفاد الأمْرُ أسلوبَ الخطابِ قوَّةً ونصاعةً.

فائدةُ النَّفْيِ بأداةِ ﴿لَّن﴾:

نفيُ الانتفاعِ من الفرارِ المذمومِ وتأكيدُ وقوعِ الأجلِ المحتومِ

آثر النَّظم الحكيمُ اختيارَ أداة النَّفي ﴿لَّن﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾، وهي تَدْخُلُ على الفعلِ المضارعِ، فَتُخَلِّصُه للاستقبالِ، وتَنْفيهِ نفيًا مُؤَكَّدًا مشدَّدًا، كما أنَّ نفيَ المضارعِ بها يكونُ نفيًا مُمْتدًّا مُتطاولًا، فجمع لهم نفيَ الانتفاعِ في المستقبلِ، مع تأكيدِ عدمِ انتفاعِ المُنافقينَ بتَسَلُّلِهم من ميدانِ الشَّرَف وفِرارِهم من الجهادِ، وإثباتِ حَتْميَّةِ الأجلِ المَقْدور والنَّصيبِ المَحْتوم.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ النَّفْعِ:

النَّفْعُ لفظٌ يعمُّ كلَّ ما يُتصوَّر الانتفاعُ به

آثر النَّظْمُ الحكيمُ استعمالَ مفردةِ النَّفعِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾؛ لأنَّ النَّفْعَ ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ؛ فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ لفظٌ عامٌّ يشملُ كلَّ ما يُتصوَّر نفْعُهُ قلَّ أو كثر، ولَمّا كانَ هؤلاءِ المُنافقونَ قدْ بَلَغَ بِهِمُ الهلعُ والجُبْنُ كُلَّ مَذْهَبٍ، فَهُم يَسْعَوْنَ للفرارِ حِرْصًا على الانتفاعِ بِكُلِّ ما يُمْكِنُهُم الوصولُ إلَيْه مِن خيراتٍ، فكانَ استعمالُ النَّفعِ في هذا السّياق هو الأنسب.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارعِ:

نفيُ النَّفعِ في المستقبلِ حثٌّ على العملِ وطردٌ للكسلِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾؛ للدِّلالةِ على نفيِ تَجَدُّدِ النَّفعِ وحُدوثِهِ في المستقبلِ القريبِ أو البعيدِ على ما ظنَّه المنافقون، فلا يتوقَّفُ نفيُ النَّفْعِ على الوقتِ الحاليِّ، بلْ نفيِ النَّفعِ متجدِّدٌ على الدوامِ، وفي ذلك تنبيهٌ وحثٌّ لمَنْ في قَلْبِه ذَرَّةُ إيمانٍ ومسْكَةٌ من جرأةٍ وشجاعَةٍ أنْ يُعيدَ

النَّظَرَ في هذا السُّلوكِ المُخْزي والمَسْلَكِ المُشين، وأنْ ينهضَ للدِّفاعِ عنْ مدينةِ رسول الله ﷺ بيضةِ الإسلام ومَعْقَلِه آنذاكَ، فلا يرضَى لنفْسِه الدَّنيَّة بالتَّسَلُّلِ، وقدْ أحدقَ الكُفَّارُ واليهودُ بالمدينةِ منْ كُلِّ حَدَبٍ وصوبٍ.

بَلاغَةُ الالتِفاتِ:

تقريعُ المنافقينَ وتوبيخُهم كفاحًا

التَّعبيرُ بالخطابِ في قولِه تعالى: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ ضربٌ من الالتفاتِ؛ لتوجيهِ الخِطابِ مباشرةً لهؤلاءِ الَّذينَ يَتَسَلَّلون لِواذًا؛ تَقْريعًا لَهُم وتَوْبيخًا على سوءِ صَنيعِهم، فكأنَّه قدْ أحْضَرَهُم، وواجَهَهُم بهذا اللَّوم، وكفحَ وجوههم بهذا التعنيفِ، وفي الالتفاتِ كذلكَ تَهديدٌ وتخْويفٌ ووعيدٌ منْ مَغَبَّةِ الفرارِ والتَّوَلي، وقدْ زادَ هذا الأسلوبُ البَليغُ الكلامَ تطريةً وحُسنًا، وقدرةً على إيقاظ القارئِ وتنبيهِ حواسِّه كلِّها، حتى يتلَقَّى منَ الأسلوبِ كلَّ همسٍ فيه[1].

فائدةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ الفعل:

اتِّساعُ المعنى آكدُ في دلالةِ النَّفي

حُذِف مُتَعَلِّق ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾؛ وذلكَ لإرادةِ العُمومِ والشُّمولِ، فلم يقل: (لنْ يَنْفَعَكُم الفرارُ شيئًا)، فآثر الحذفَ؛ ليتَّسعَ المعنَى لنفي أيِّ نفعٍ قد يَظُنّونَ أنَّهُم واصِلونَ إليه بالفرارِ، فلنْ يَنْفَعَهُم الفرارُ بنجاةٍ من قَدَرِ اللهِ، ولن يُنيلَهُم عُمرًا زائدًا على أجَلِهم المحتومِ شيئًا، بلْ إنَّ الفرارَ قدْ لوَّث سُمعَتَهم، ولَطَّخَ شرفَهم، وكشَفَ عن سوءِ طَويَّتِهم.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿ٱلْفِرَارُ﴾:

الفرارُ يومئ إلى جبنٍ أصيلٍ وخفَّةٍ في السُّلوكِ

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ استعمالَ مفردة ﴿ٱلْفِرَارُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾؛ لبيانِ ملمحِ الجُبْنِ وقِلَّةِ البأسِ والثِّقَةِ في النَّفْسِ، مع الإيماءِ إلى أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ قد اشتدَّ بهم الخوفُ حينَ دَهَمَهُم العدوُّ، فأسقطَ الغشاءَ الرَّقيقَ من ادِّعاءاتِهم الكاذبةِ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 122.

بالإيمانِ والتصديقِ، فبادروا إلى الحركةِ السريعةِ دون تفكيرٍ في حفظِ ماءِ وجوهِهم.

دلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْفِرَارُ﴾:

جاء التَّعريفُ بمفردةِ ﴿ٱلْفِرَارُ﴾ بـ(أل) دونَ الإضافةِ بأن يُقال: (فراركم) بضمير المخاطَبِ الَّذي يفيدُ توكيدَ نسبةِ الفرارِ إليهم؛ لأنَّ المرادَ العهدُ الذِّكْريُّ إشارةً إلى الفرارِ المذكورِ في قولِه ﷻ: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: 13]، وذلكَ لأنَّ فرارَهُم أصبحَ شيئًا معروفًا لكلِّ الناسِ، فليسَ ثمَّةَ حاجةٌ لتأكيدِ نسبتِه إليهم؛ إذ إنَّ فرارَهُم مشهورٌ لا تَحْتاجُ نِسْبَتُهُ إليهم إلى ضميرٍ يؤكِّدُ هذهِ النِّسبَةَ، وفيهِ دلالةٌ بيِّنَةٌ على افتضاحِ أمْرِهم.

جـبنُ الأشقـياءِ تُظهره إشـاراتُ الألفاظ

دلالةُ نَفيِ النَّفْعِ عن الفَرارِ:

نُفي النَّفعُ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ مطلقًا، معَ أنَّه في ظاهرِ ما يحسبه النّاس قدْ يُعدُّ نافعًا، وذلكَ لأنَّ هَذا السَّبَبَ غَيْرُ مَأْذونٍ فيهِ لِوُجوبِ الثَّباتِ في وجْهِ العَدوِّ مَعَ النَّبي ﷺ، والنَّفع فيما يكون في المآلِ للمؤمنين في الدُّنيا، وفي الآخرة، فإذا فاتَ الإنسانَ الخيرُ في الدُّنيا والآخرة؛ فقد فاته النَّفع الحقيقيُّ، وخسِر الخسارة الكبيرةَ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعْنى أيْضًا: أنَّكم إنْ فَرَرْتُمْ، فَنَجَوْتُمْ مِنَ القَتْلِ؛ لا يَنْفَعُكُمُ الفِرارُ مِنَ المَوْتِ بِالأجَلِ، وعَسى أنْ تَكونَ آجالُكم قَريبَةً[1].

الـــفـــرارُ إثـــمٌ مذمومٌ والأجـلُ قَدَرٌ محتومٌ

فائدةُ استعمالِ أداةِ ﴿إن﴾:

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ استعمالَ أداةِ الشرطِ ﴿إن﴾ دونَ الظرفِ (إذا) الَّذي يُفيدُ معنَى الشرطِ؛ وذلكَ لأنَّ ﴿إن﴾ إنَّما تُستَعملُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه، الَّذي يحتملُ الشَّكَّ، على النقيضِ من (إذا) الَّتي

الإيماءُ إلى تركِ التَّفكيرِ في الفرارِ وطلـبِ حقائق الأقدار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 290.

تفيدُ القطعَ بوقوعِ شرطِها غالبًا، ولذا فقدْ أفادَ استعمالُ ﴿إن﴾ الدِّلالة على عدمِ يقينيَّة الفرارِ؛ إذْ إنَّ قدَرَ اللهِ غالبٌ، ولا مُعَقِّبَ لحكمِه وقَضائِه؛ ففيها إيماءٌ إلى الحثِّ على تركِ التَّفكيرِ في الفرارِ والإقدامِ عليه.

نكتةُ استعمالِ الألفاظِ الواحدةِ في سياقٍ واحدٍ:

إلصاقُ الأوصافِ بأصحابِها تنبيهٌ على سجاياهم

أعادَ النَّظْمُ الحكيمُ استعمالَ مادة (الفرارِ) في الفعلِ ﴿فَرَرْتُم﴾ في الآيةِ نفسِها بعد ذكرها في قوله: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾؛ تأكيدًا على وصْمِهم بهذا الفعلِ الشائنِ، الَّذي وقَعوا فيه، وسَمَّوْهُ - كَذِبًا - بغيرِ اسمِه، فدَعَوْه (استِئْذانًا)؛ ليُلصقَ بهم وصفُ الفرارِ، فهوَ فرارٌ بسببِ رِقَّةِ دينِهم وفسادِ قلوبِهم وكبيرِ جُبنِهم، وفي تسميةِ الأفعالِ الشائنَةِ بأسمائِها تنْبيهٌ للمؤمنينَ على عدوِّهم الخفيِّ الَّذي يحاولُ خِداعَهُم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ الماضي:

المُنافقُ على بابِ الخذلانِ ينتظرُ فرجةً لينسلَّ

جاء التَّعْبيرُ بصيغة الماضي في قولِه تعالى: ﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ الدالَّةِ على انتهاءِ زَمَنِ الفعلِ إشارةً إلى عَزْمِهم على الفرارِ، وقد اقترنت بأداة ﴿إن﴾؛ لبيانِ أنَّهم يتَحيَّنونَ الفرصةَ للفرارِ والتَّنَصُّلِ من عَهْدِهم الَّذي عاهَدوا عليْه رسولَ اللهِ ﷺ، ففرارُهم مسألةُ وقتٍ لا رجْعَةَ فيه، ولا ينْقُصُه سوى الفرصَةِ السانحةِ لخذلانِ المؤمنينَ.

علَّةُ حَذْفِ جَوابِ الشرطِ:

الإيجازُ والاختِصارُ من سِماتِ النَّظْمِ الحَكيمِ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، حَذَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ جَوابَ ﴿إِن فَرَرْتُم﴾؛ لدَلالةِ ما سَبَقَ عليه، أي: إنْ فَرَرْتُم؛ لنْ يَنْفَعَكُم فِرارُكم[1]، ولتحقيقِ سمةٍ أساسيَّةٍ للذِّكْرِ الحكيمِ، وهيَ الإيجازُ والاختصارُ.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 187.

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ ابتدائيَّةٌ، وذلك لتحديد ابتداء غايتهم من الفرارِ، وهو الموتُ؛ إذ هوَ بدايةُ غايتِهم مِنَ الفرارِ.

نكتةُ تَقْديمِ ذكرِ ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ على ﴿ٱلْقَتْلِ﴾:

المنافقُ يفرُّ من الموتِ فكيف فرارُه من القتلِ؟

قدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ الموتَ في قولِه تعالى: ﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾؛ لأنَّ الآيةَ تُنبِّه المنافقين على أنَّ الموتَ لا يختلف عن القتل في إنهاءِ الآجال، وأنَّ الموتَ سيأتي، فلا فرار منه كالقتلِ إن تحقَّق؛ فلا فرار منه، فكَشَفَ هذا التَّقْديمُ عنْ دَخيلةِ نُفوسِهم؛ إذ هُم قومٌ مُتَشَبِّثونَ بالدُّنيا، كما أنَّ في تقديمِ الموتِ إشارةً إلى أنَّ المنافقينَ ليسوا من أهلِ القتالِ والذي يُسارع فيهم هو الموتُ، كما أنَّ المَوتَ أمرٌ عامٌّ؛ إذْ هوَ مصيرُ جميعِ الخلائقِ الَّذينَ يَتَوَفَّى اللّٰهُ أكثَرَهُم مَوتًا حَتْفَ أُنوفِهم، لا قتلًا في ساحاتِ الجهادِ، فبدأ بالعامِ الذي هوَ الأصلُ، ثمَّ ذكَرَ الخاصَّ بعده، وهوَ القتلُ.

نوعُ ﴿أَوِ﴾ ودلالتها:

أفاد حرف العطف ﴿أَوِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ التقسيمَ، والمعنَى: لَنْ يَدْفَعَ عَنْكم ما أُبْرِمَ في الأزَلِ مِن مَوْتِ أحَدِكم حَتْفَ أنْفِه، أوْ قَتْلِه بسَيْفٍ ونَحْوِه[1].

دلالةُ تَعْريفِ لفظَي المَوتِ والقَتْلِ:

جنسُ الموتِ والقتلِ بدلالة المقابلة بينهما

جاء تعريفُ لفظَي الموت والقتل في قولِه تعالى: ﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ بالألفِ واللامِ دونَ الإضافةِ، فلم يقل: (موتِكُم) و(قتلِكُم)، والتَّعريفُ للجنسِ، أي: جنسِ الموتِ، وهو المَوْتُ الزُّؤامُ، وهو المَوتُ حتْفَ أنْفِه؛ لأنَّهُ قوبِلَ بالقَتْلِ الذي يكون بالسَّيفِ ونحوِه،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 21/ 224.

والمَعْنى: أنَّ الفِرارَ لا يَدْفَعُ المَوْتَ الَّذي عَلِمَ اللّه أنَّهُ يَقَعُ بِالفارِّ في الوَقْتِ الَّذي عَلِمَ أنَّ الفارَّ يَموتُ فيهِ، ويُقْتَلُ، فَإذا خُيِّلَ إلى الفارِّ أنَّ الفِرارَ قَدْ دَفَعَ عَنْهُ خَطَرًا؛ فَإنَّما ذَلِكَ في الأحْوالِ الَّتي عَلِمَ اللّه أنَّها لا يُصيبُ الفارَّ فيها أذًى، ولا بُدَّ لَهُ مِن موت (حَتْفَ أنْفِهِ) أوْ قَتْلٍ في الإبّانِ الَّذي عَلِمَ اللّه أنَّهُ يَموتُ فيهِ، أوْ يُقْتَلُ[1].

معنى (إذًا) بعدَ الواوِ العاطفة ودلالَتُها:

مـهـمـا طـالـتِ الأعمارُ؛ فمتاعُ الدُّنيا قليلٌ

جاءتْ ﴿وَإِذًا﴾ في قَولِه ﷻ: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، حَرفَ جوابٍ وجزاءٍ، وهو مهمل؛ لأنَّه وقع بعد عاطفٍ، فجاءت على الأغلبِ، وهو عدمُ إعْمالِها[2]؛ لأنَّه إذا كانت الواو مع (إذًا)؛ كان في الواوِ فعلٌ مُضْمَرٌ، وكانَ معنى (إذن) التَّأخيرَ[3]، والأكْثَرُ إنْ وقَعَتْ (إذَنْ) بَعْدَ الواوِ والفاءِ العاطِفَتَيْنِ ألّا يُنْصَبَ المُضارِعُ بَعْدَها، ووَرَدَ نَصْبُهُ نادِرًا، وتقدير الكلام: وإذا فررتم، فتمتَّعتم؛ لم يكن ذلك التَّمتيع إلّا تمتيعًا قليلًا أو زمانًا قليلًا[4].

والمقصودُ مِنَ الآيَةِ تَخْليقُ المُسْلِمينَ بِخُلُقِ اسْتِضْعافِ الحَياةِ الدُّنْيا، وصَرْفُ هِمَمِهِمْ إلى السَّعْيِ نَحْوَ الكَمالِ الَّذي بِهِ السَّعادَةُ الأبَدِيَّةُ سَيْرًا وراءَ تَعاليمِ الدّينِ الَّتي تَقودُ النُّفوسَ إلى أوْجِ المَلَكِيَّةِ[5].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿تُمَتَّعُونَ﴾:

كُلُّ تَمَتُّعٍ عَيشٌ، وليسَ كُلُّ عيشٍ تَمَتُّعًا

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بفعل ﴿تُمَتَّعُونَ﴾ دون (تعيشون) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لما في معنى التَّمَتُّعِ مِن امتداد الشَّيءِ مَعَ قوَّتِه وكمالِ حالِه، فالتركيبُ مُسْتَعْمَلٌ في معنى الإبقاءِ دهرًا مع الزّادِ ومُستلزماتِ المَعيشةِ، بخلافِ العيشِ، الَّذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 291.
(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 246.
(3) الفراء، معاني القرآن: 2/ 337.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 160.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 291.

يدلُّ على ما تَقْتَضيه الحياةُ مِن اغتذاءٍ ونُموٍّ وحركةٍ وسعيٍ[1]، فكُلُّ تَمَتُّعٍ فيه عَيشٌ، وليسَ في كلِّ عيشٍ تَمَتُّعٌ بما في الحياةِ منْ مباهِجَ، ولمّا كانت غايةُ المنافقينَ التَّمَتُّعَ لا مجرَّد العيشِ، فقد استعمله القرآن لبيانِ دخيلةِ نفوسِهم؛ إظهارًا لِشِدَّةِ حرصِهم على مباهجِ الدُّنيا وزَهْرَتِها.

بلاغةُ أُسلوبِ القَصْرِ:

المتاع الحقيقيُّ في طاعة الله ورسوله

جاء أسلوبُ القصر في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ باستعمالِ ﴿لَّا﴾ النّافية، و﴿إِلَّا﴾ الدالَّة على الاستثناء، وهوَ استثناءٌ مُفَرَّغٌ، والمَعْنَى: على فَرضِ أنَّكُم فررتُم من المَوتِ أو القتلِ – وهوَ محالٌ – فإنَّكُم تُمَتَّعون قليلًا، فهو نفيٌ لجميعِ أشكال التَّمتُّع وصوره، وإثبات للقليل منه، فهو قطعٌ لنفَسِ الأملِ، واللَّهو الباطل.

دَلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ الفعل:

غاية المنافق محصورةٌ في التَّمَتُّعِ دونَ المعالي العالية

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ حَذَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ مُتَعَلِّقَ ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾، وذلكَ لنكتةٍ بديعةٍ: وهيَ إثباتُ غَرضِهم في فِعلِ التَّمَتُّعِ، وقَصْره عليه، فكأنَّ غايةَ القومِ من السَّعي الحثيثِ للفرارِ إنَّما هيَ محصورةٌ في التَّمَتُّعِ في حدِّ ذاتِه، "وهكذا كلُّ موضعٍ كان القصدُ فيه أن يُثْبتَ المَعنَى في نفسِه فِعْلًا للشيءِ، وأن يُخْبرَ بأنَّ مِن شأنِه أنْ يكونَ مِنه، أو لا يكونَ إلّا مِنه، أو لا يكونَ منه، فإنَّ الفعلَ لا يُعدَّى هناك؛ لأنَّ تعديته تَنْقُضُ الغرضَ وتُغيِّر المعنَى"[2]، ومِن هنا حُذِفَ المفعولُ بيانًا لِسُخْفِ غايَتِهم وتحقيرًا لها؛ إذْ إنَّ حصْرَ الغايةِ من الحياةِ في التَّمَتُّعِ وحدَه أمرٌ لا يليقُ بمَنْ تَسْمو نفسُه للمَعالي.

فائدةُ حَذْفِ المَوصوفِ:

حُذِفَ الموصوفُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (متع)، و(عيش).
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 177.

و﴿قَلِيلًا﴾ نائبٌ عن مفعولٍ مطلقٍ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: لا تُمَتَّعونَ إلّا متاعًا قليلًا، وقيل: نائبٌ عنِ الظَّرفِ صفةٌ لظرفٍ محذوفٍ، أي: لا تُمَتَّعونَ إلّا وقتًا قليلًا، وقيل: حالٌ مِنَ التَّمتُّعِ[1]، وسواءٌ أكانَ الموصوفُ المحذوفُ مصدرًا أم ظرفًا أم حالًا، فإنَّ الغرضَ من هذا الحذفِ توجيهُ الأنظارِ إلى كونِ التَّمتُّعِ قليلًا، مع إفادةِ العمومِ والإطلاقِ، فإنَّ هؤلاءِ الفارِّينَ النّاكثينَ لنْ تطولَ مُتْعَتُهُم، ولنْ ينتَفِعوا بفرارِهم.

توجيهُ الأنظارِ إلى مدَّةِ التَّمتُّعِ يضبطُ السُّلوكَ المنفلتَ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفرارُ والهروبُ:

الهربُ فيهِ نوعٌ مِنَ الخوفِ والذُّعرِ، وممّا يُستأنس به على هذا أنَّ مادَّةَ (هرب) هي مقلوبُ مادة (رهب)، والأصلُ فيها الدلالةُ على الخوفِ، أمّا الفرارُ؛ فهوَ تعبيرٌ عنِ الحركةِ والمباعدة بِخِفَّةٍ معَ اسْتِرْسالٍ في تكرارٍ، وقد ذهبَ بعضهم إلى أنَّ الهروبَ مصحوبٌ دائمًا بالخوفِ الشديدِ، وأنَّ الفرارَ لا يُشترطُ فيهِ شدَّةُ الفزعِ دائمًا، وإنَّما يَخْتَصُّ بِمَلْمَحِ الانكشافِ والهَزيمةِ، واللُّجوءِ إلى مصدرِ الأمنِ[2]، وقد آثرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بالفرارِ دونَ الهربِ؛ إشارةً إلى أنَّ هؤلاءِ اشتدَّ بهم الخوفُ حينَ دَهَمَهُم العدوُّ، فأسقطَ الغشاءَ الرقيقَ من ادِّعاءاتِهم الكاذبةِ بالأيمانِ، فبادروا للحركةِ السريعةِ دون تفكيرٍ في حفظِ ماءِ وجوهِهم.

الفرارُ خفَّةٌ ومباعدةٌ، والهروب تفكيرٌ سابقٌ وشدَّة خوف

الموتُ والقتلُ:

القَتْلُ نقضُ البِنْيَةِ الحَيوانيَّةِ، ولا يُقالُ لَهُ: قتلٌ في أكثرِ الحالِ إلّا إذا كانَ من فعلِ آدَميٍّ، وقالَ بَعضهم: القَتْلُ إماتةُ الحَرَكَةِ، ومِنْه يُقال: ناقَة مُقَتَّلَةٌ؛ إذا كَثُرَ عَلَيْها الإتعابُ حَتَّى تموتَ حركتُها، والمَوْتُ

القتلُ نَقْضٌ للبِنْية يتبعُهُ إزهاقٌ للرّوحِ، أمّا الموتُ؛ فخروجٌ للروحِ دون نقضٍ للبنيةِ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 246.
(2) فاضل السامرائي، برنامج لمسات بيانية، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن، ص: 26.

عَرَضٌ أيْضًا يضادُّ الحَياة مُضادةَ القتلِ، ولا يكون إلّا مِنْ فِعلِ اللّهِ سبحانَه، والميتَةُ الموتُ بعَيْنِه إلّا أنَّه يدلُّ على الحال، والمَوْت يَنْفي الحَياةَ مَعَ سَلامَة البنية، ولا بُدَّ في القَتْل مِن انْتِقاض البنية، ويُقالُ لمن حَبَسَ الإنْسانَ حَتَّى يَموتَ؛ إنَّه قَتله، ولَيْسَ بِقاتِلٍ في الحَقيقَة؛ لِأنَّهُ لم ينْقضِ البِنْيَةَ، ويُستعارُ المَوْتُ في أشْياءَ، فَيُقالُ: ماتَ قلبُه؛ إذا صارَ بَليدًا، وماتَ المَتاعُ، أي: كَسَدَ، وماتَ الشيءُ بَينهُم: نَقَصَ، وحظٌّ مَيّتٌ: ضَعيفٌ، ونباتٌ مَيِّتٌ: ذابلٌ، ووَقع في الماشيةِ مَوَتانٌ؛ إذا تَماوَتَتْ، ومَوَتانُ الأرْضِ؛ إذا لَم تعمُرْ[1]، وقدْ عطَفَ النَّظمُ الحَكيمُ الموتَ على القتلِ لاستيعابِ أشكالِ خروجِ الروحِ من الجسدِ؛ بيانًا لعدمِ قدرتهِم على الفرارِ من قدرِ اللّه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»